مزامير نجيب محفوظ

لمناسبة عودة «اولاد حارتنا» الى عين العاصفة!

فرانسوا باسيلي*

نجيب محفوظ

محاولة اغتيال:

■ عندما قام شاب موتور في مساء الجمعة 14 تشرين الاول (اكتوبر) 1994 بطعن نجيب محفوظ في رقبته بالسكين محاولا اغتياله، كتب المعلقون وقتها ان هذا الشاب لم يكن يعرف ماذا يفعل! وعندما سمعوه يتحدث في مقابلة تليفزيونية بعد الحادث، تاكدوا من ذلك اذ انه لم يقرا حرفاً واحداً للروائي العربي والعالمي الكبير، ومع ذلك قام بمحاولة قتله بناء على ما كان يسمعه من تحريض ضد الكاتب من بعض المتطرفين المتشنّجين الذين سمح لهم مجتمع فقد بوصلته الحضارية بان يسطوا على منابر الجوامع ليبثّوا من عليها خطب الكراهية والعدوانية التي هي بضاعتهم الاساسية. وكان البعض من هؤلاء المقيمين في عصور بائدة وفي كهوف الماضي، من خطباء الجوامع بل ايضاً من اساتذة الجامعات الذين نشروا كتبا ودراسات عن نجيب محفوظ، قد دابوا لعدة سنوات يخطبون ويكتبون مهاجمين الاديب العربي الوحيد الذي حصل على جائزة نوبل في الادب، متهمينه بانه ليس مسلماً صحيح الاسلام، وبانه يكتب ضد الاسلام و.. وقاموا بالقاء التهمة الجاهزة لديهم التي يطلقونها بخفة وكراهية على الكثيرين وهي نفس التهمة التي اطلقها اسامه بن لادن على اليهود والنصارى.. انهم كفّار! فقالوا ان نجيب محفوظ كافر..!

وكان من هؤلاء المحرضين على نجيب محفوظ الشيخ كشك، الذي اشتهر وذاع صيته في ذلك الوقت في مجتمع استسلم لدغدغة اصابع التطرف والكراهية، وهو في سبات الكسل الفكري والاسترخاء الحضاري.. يتمرغ في نوم ثقيل لفرط تعبه الجسدي والروحي، ولا يسمع سوى الصراخ الذي يصرخه الارهابيون والمتطرفون من الجماعات الاسلامية فيجد فيه لذة الاثارة الوحيدة المتاحة له، بعد ان فقد ـ كمجتمع ـ لذة خلق الحضارة وابتكار المعارف الجديدة، ولذة الحياة نفسها.. فاختار لغة الحقد والعدوان والموت والقتل. وكان الشيخ محمد الغزالي نفسه، صاحب الكتب الكثيرة في الاسلام ومبادئه، قد قدم تفسيراً مجحفاً باطلا لرواية «اولاد حارتنا» بانها تدل على الكفر والالحاد.. بينما اصدر الشيخ عمر عبدالرحمن المحرض على اعمال التدمير لمبنى التجارة العالمي عام 93 والمعتقل في نيويورك حالياً، «فتوى» بتكفير نجيب محفوظ واباحة دمه!!

ولكن الذين قالوا ان هؤلاء الارهابيين بمحاولتهم قتل نجيب محفوظ لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون قد جانبهم الصواب.. فرغم ان الشاب الموتور الذي طعن بالسكين لم يقرا لنجيب محفوظ ولم يعرفه، فان الذين حرضوا ضد نجيب محفوظ كانوا يعلمون تماما ماذا يفعلون.. فرغم ان اتهاماتهم بالكفر وبعدم التدين هي اتهامات مشينة وباطلة.. لان كل من عرف نجيب محفوظ عرفوا فيه الرجل المحبّ الجميل بالغ الحساسية والحكمة والفضيلة.. رغم ذلك فقد كان هؤلاء المتطرفون يدركون جيداً ان نجيب محفوظ في كل كتاباته واعماله الروائية الباهرة المضيئة يمثل النقيض تماما لكل ما يمثلونه هم من فكر عدواني دموي كاره للآخر وللحياة.. لقد قراوا بلا شك بعض ما كتب نجيب محفوظ.. ويكفي ان نقرا كلمات قليلة من اي عمل من اعمال هذا المبدع الفذ لتدرك توّاً مبلغ سموّ الطاقة الانسانية والروحية الشاهقة التي يمتلكها، والتي تقطر كل كلمة يكتبها بشهد هو شهد الحياة نفسها.. ليس الحياة بابعادها اليومية الوجودية الجسدية الغرائزية فقط، بل ايضاً، وفي نفس الوقت، الحياة بابعادها الروحية العالية، ذات الاشتياق الصوفي العظيم للكمال الاعلى، وللحقيقة الخالدة. لقد كان ارهابيو الفكر والفعل يعرفون تماماً ماذا يفعلون عندما ارتعبوا مما يكتبه هذا الانسان المرهف من كتابات تجمّعت فيها عصارة الالم والامل والخوف والحب واليقين والبحث والضمير والخطا الانساني كله.. كما تتجمع في كل انسان حيّ جدير بهذه الصفة، لكنه سبق الآخرين في انه استطاع ان يسبر غور هذه المشاعر المتلاطمة كلها ويعبّر عنها على لسان شخصياته في رواياته وقصصه، فاذا هو يهدي الينا، ويهدي الانسانية جمعاء، اجمل هدية، هي هدية الكشف واضاءة جوانب الذات المظلمة، هدية معرفة النفس، ومعرفة الآخر، ومعرفة الوجود، والسعي الدائم لمعرفة خالق هذا الوجود. وقد فعل ذلك ليس باسلوب الوعظ المباشر المعنّف الذي لا يلمس قلب الانسان وبالتالي لا يؤثر ولا يجدي كمعظم الخطب المباشرة المعنفة المقرعة بلا جدوى.. وانما فعله باسلوب الطبيب الجراح الذي يبحث عن اصل الداء، ويضع يده على الجزء المريض المتعب من الجسد.. لكي يمكننا بعد هذا ان نقدم العلاج، او الراحة المسكنة. كما فعله باسلوب المحبّ لكل الناس، فعندما نقرا شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الاجرامية مثل «سعيد مهران» في رواية «اللص والكلاب» لا تملك الا ان تشعر بالعطف والحزن والمشاركة الانسانية لشقاء هذه الشخصيات الاجرامية، وتلمس فيما يكتبه نجيب محفوظ ان طاقته على محبة الجميع تشمل حتى المجرمين الذين يصورهم ببراعة وانسانية بالغة في رواياته.. نعم ان الارهابيين قد راوا في فكر نجيب محفوظ تهديداً لهم.. لان جمال وبهاء الانسانية التي في ابداعاته تفضح قبح ودمامة مشاعر الكراهية والعدوانية التي يمثلونها هم بفكر عدواني كاره للحياة.

جائزة نوبل

لقد عرف العالم كله قدر هذا المبدع العظيم فمنحه العالم جائزة نوبل في الادب عام 1988م. وذلك عن اربع روايات بشكل خاص، ثلاثيته الشهيرة التي تضم «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية»، وكلها اسماء حارات في حي الجمالية الذي وُلد فيه محفوظ، ثم رواية «اولاد حارتنا» التي قام ارهابيو الفكر والفعل بتكفيره بسببها! واذكر انني قرات «اولاد حارتنا» عندما كنت طالباً، وكانت جريدة «الاهرام» تنشرها مسلسلة في «اهرام الجمعة». كما قرات بالاهرام ايضا «الطريق» و«اللص والكلاب» و«السمان والخريف» و«ميرامار».. وكان كل جزء ينشر كل جمعة هو زادنا الحضاري والروحي للاسبوع كله، انا ومجموعة صغيرة من الاصدقاء كنا نتابع معا هذه الكتابات الباهرة التي يتحفنا بها محفوظ كل اسبوع، ونظل نتناقش ونحتدّ حولها حتى الجمعة التالية.

بالطبع لا تستطيع روايات عادية او حتى جيدة ان تفعل هذا الفعل في عقول ونفوس عدة اجيال من شباب مصر والعالم العربي. فقد كان هناك كُتّاب آخرون كبار وقتها مثل احسان عبدالقدوس ويوسف السباعي وعبدالحليم عبدالله وغيرهم، يكتبون الرواية ايضا، ولكن لم يقترب اي منهم من مكانة محفوظ، ولم يحصل اي منهم على نوبل. فما الذي في كتابات محفوظ لكي يكون لها فعل السحر هذا؟ في اعتقادي ان السر في كتاباته لا يكمن في صفة واحدة منها، ولا يرجع الى سبب واحد، ولكن ان كان لنا ان نوجزها كلها في صفة اساسية شاملة واحدة، فهي ان كتاباته كانت مملوءة حتى الثمالة بعصارة الحياة نفسها وكلها.. عصارة هي مزيج من الشهد والمرّ، والخمر والعلقم، والفاكهة وماء الورد وامطار الجبال وانهار السفوح، وينابيع الشباب السحرية التي تحدثنا عنها الاساطير دون ان نجدها في مكان.. كل هذا في اسلوب يجمع بين الفلسفة والشعر.. ففي حواراته ووصفه حكمة عالية هي حكمة الفلاسفة.. وشاعرية مرهفة نافذة مثل وحي ابلغ الشعراء..

ولكن من اين لمحفوظ كل هذه الفلسفة وكل هذا الفكر والشعر؟!

سلامة موسى

اما الفلسفة فقد درسها في كلية الاداب قسم الفلسفة، والتي تخرج منها عام 1934م. ولكن الملفت ان نبوغه كان قد ظهر عدة سنوات قبل هذا، اذ بدا ينشر المقالات النقدية عام 1928م اي وهو طالب في سن السابعة عشرة، (ولد في 11 كانون الاول ـ ديسمبر 1911م).

ويقول الناقد الكبير رجاء النقاش في كتابه «في حب نجيب محفوظ»: (الحقيقة ان نجيب محفوظ هو خلاصة الامتزاج والتفاعل في شخصيته بين استاذين كبيرين هما الشيخ مصطفى عبدالرازق استاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب، وسلامة موسى، الصحافي والمفكر الكبير.. وكان سلامة موسي ثائراً مجدداً، ومؤمنا متطرفاً بالحضارة الغربية الحديثة.. وكان في نفس الوقت من المتحمسين للحضارة الفرعونية والداعين الى احيائها، وقد تاثر به نجيب محفوظ تاثراً واضحاً، فتحمس للحضارة الفرعونية وترجم عنها ـ وهو طالب في الجامعة كتاب «مصر القديمة»، وهو اول كتاب يكتبه محفوظ، وقد نشره له سلامة موسى، وتحت تاثير سلامة موسى ايضاً اصدر نجيب محفوظ رواياته الثلاث الاولى، وكلها عن مصر الفرعونية، وهي روايات «عبث الاقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة».

اما الشيخ مصطفى عبدالرازق، وشقيقه علي عبد الرازق، فقد كانا منارتين للفكر الاسلامي المتفتح المستنير في مطلع القرن العشرين، وهو الفكر الذي تراجع في مصر منذ السبعينات امام زحف الفكر المتطرف للجماعات الاسلامية، وبذلك تعلم نجيب محفوظ من استاذيه مصطفى عبدالرازق وسلامة موسى التدين في اعتدال، والايمان مع الانفتاح على عقائد الآخرين بدون تعصب، وتعلم اسس الفكر العلمي الموضوعي، والثقافة الاجتماعية العلمانية، وهكذا نجد في كل كتاباته بعد ذلك فكراً متحرراً موضوعياً سابقاً لمجتمعه.

ابداعاته الفلسفية

من الضروري اولا التنبيه ان المقاطع التي ساوردها هنا ماخوذة معظمها من روايات وقصص نجيب محفوظ عن لسان شخصياته الروائية، وبالتالي لا نستطيع ان نقول ان هذه هي بالضرورة افكاره هو، فعندما يضع المؤلف كلمات عن لسان مجرم شرير، مثلا، فستكون افكاره واقواله شريرة، ولا نستطيع ان نقول ان هذه هي افكار المؤلف ايضا ووجهة نظره، ومع هذا فيمكننا من طريقة صياغة المؤلف للكلمات والافكار ان نعرف شيئاً عن فكر المؤلف حتى ولو جاء متخفياً على لسان شخصياته الروائية.

ولنبدا بعرض فكرة قالها نجيب محفوظ مباشرة في مقابلة مع محمد بركات، وهي بهذا فكره الشخصي.. ويتضح منها المنحى الفلسفي لهذا الكاتب الكبير:

«اعتقد ان كل انسان يبحث عن السعادة وعن الحقيقة.. ورغبة بعض الناس الشديدة في السعادة ربما سقطت بهم الي تحقيقها على حساب الحقيقة.. كما ان رغبة البعض الآخر في نشدان الحقيقة والبحث عنها ربما كانت على حساب ما يحققونه من سعادة.. ويبلغ الانسان مرتبة الكمال عندما يتضح له في لحظة ان الحقيقة كل الحقيقة هي السعادة كل السعادة». ويقول في قصة «الحب والقناع»: (الانسان يفوق الحيوان في شهوة القتل فيقتل نفسه ايضاً).

ونقرا له في روايته «الحرافيش» (افرح عند كل شروق شمس، ولا تحزن عند غروبها.. و.. يا لتعاسة القلوب الغافلة)..!

وفي «حضرة المحترم»، نقرا هذه الكلمات الرائعة التي هي مزيج من الفلسفة والشعر والصلوات:

«على الارض تطرح اسرار الهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة..

ان الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة..

بالحزن يتقدس الانسان ويعد نفسه للفرح الالهي..

لم يعد يبالي بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون».

ونلاحظ في هذه المقاطع تعبيرات متاثرة بالعهد القديم.. كما نلاحظ في الكثير من كتابات وشخصيات محفوظ تاثيرات اسلامية واضحة، وهكذا فالرجل مسلم في اعتدال وانفتاح.. ولذلك اتهمه الارهابيون بانه ليس مسلماً صحيح الاسلام! اي ليس مسلماً على طريقتهم العدوانية. ولكني لا اريد ان اعطي انطباعاً ان نجيب محفوظ رجل شديد التدين بالمعني الفقهي للكلمة.. فكتاباته تنضح بقدر عظيم من عنفوان الحياة وشهواتها وتقلباتها.. فهو من ناحية له جانب صوفي روحي ينشد الحقيقة ويبحث عن المطلق، ومن ناحية اخرى لا يمنعه هذا من اجتراع عصارة الحياة حتى الثمالة. دون ان يعني هذا انغماسه في اي نوع من الابتذال في حياته الشخصية بل بالعكس فحياته الشخصية كتاب مفتوح للجميع فهو زوج واب محبّ محافظ ليس له نزوات ولا عادات اجتماعية سيئة، وتتجلى محبته للناس وللحياة في حفاوته بالناس وحبّه للضحك الصافي وللسخرية والنكتة والقافية على طريقة المصريين جميعا.. فهو مصري في كل قطرة من دمائه وبكل مشاربه.. لكنه يمثل اجمل ما في الاخلاق والطبائع المصرية.. وله في وصف المصريين كلمات جميلة قالها في مقابلة مع الفريد فرج..

قال في المصريين:

«المصريون لطاف واهل مودة، يحبون الحياة ويعشقون مسراتها، وبخاصة المسرّات الحسية، وفيهم من طبيعة النمل، ذلك هو داب الواحد منهم.. وحتى لو لم تكن همته عالية، الا انها همة متصلة باستمرار.. تثمر في النهاية عملا ضخماً، ومن صفات المصريين العجيبة انهم تمرسوا بالاستبداد.. وهم من اقوى الناس على كراهيته وعلى الصبر عليه. انهم يحتملونه كما يحتمل الشخص مرضاً مزمناً لا يحبه ولكنه يصبر عليه. يخيّل لي انهم من اكثر شعوب العالم احساساً بالحاكم. وسبب ذلك ان الحاكم كان له دائماً وفي كل العصور اثر في كل تفاصيل حياتهم اليومية.. وهم من الشعوب المتدينة جداً.. ويغلب عليهم التعلق بالطقوس والمراسم والعادات الدينية.. وان اي نقائص في الشخصية المصرية ـ كالقدريّة وندرة الروح العلمية والسلبية في كثير من الاحيان ـ انما ترجع الى ما ورثته من عهود الظلام التي شملتها آلاف السنين».

ولنجيب محفوظ كلمات اخرى بها نقد عظيم للشخصية المصرية وللمصريين ـ على قدر حبه العظيم الواضح لهم ـ نقراها على لسان شخصياته الروائية. ومنها: «كان كالثور المصري عظيم الخوار عديم الاذى».

وتمنحه الروايات فرصة استخدام كلمات قد لا تكون لائقة لا يقولها هو ولكن تقولها شخصياته الروائية بشكل معبر قوي.. فنقرا في «السكرية»: «الحق ان الاستبداد هو مرضهم (المصريين) المتوطن.. كل ابن كلب غرّته قوته يزعم لنا انه الوصي المختار وان الشعب قاصر.. نحن شعب قليل الادب!.. لا اعرف شعباً كالشعب المصري ولعاً بالخوض في اعراض الامهات.!.. ان الزمن ادبّنا اكثر مما ينبغي، والشيء اذا زاد عن حدّه انقلب الى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك»..

اما في «ميرامار» فيصرخ «عامر وجدي» في غضب: «ايها الانذال، ايها اللوطيون، الا كرامة لانسان عندكم ان لم يكن لاعب كرة؟».. ويقول عامر وجدي ايضا في نفس الرواية: «لقد سلبت (الثورة) البعض اموالهم وسلبت الجميع حرياتهم». اما حسني علام، شخصية اخرى من شخصيات (ميرامار) فيخاطب المصريين قائلا: «اني اتبرأ منكم!.. اتبرا منكم يا فتات العصور البالية»!

وفي «المرايا» نقرا على لسان شخصية تدعى «عبد الرحمن شعبان» هذه السخرية اللاذعة: «هكذا انتم ايها المصريون، لن تزالوا غارقين في اوهام الكلمات حتى تموتوا.. ولِمَ لم اكن مصرياً لتمنيت ان اكون مصرياً! ولِمَ لا تتمنى ان تكون حماراً فيكون لك نفع على الاقل؟!.. وفي موضع آخر من «المرايا» ايضا يقول عبدالرحمن شعبان: «اتعرف ما هي اكبر نعمة اغدقت علينا؟ هي الاستعمار الاوروبي، وسوف تحتفل الاجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبي».

ولكننا نعرف من كل هذا النقد القاسي، ان الذين يحملون للوطن حباً حقيقياً هم الذين ينتقدونه اشد النقد، بينما لا يقدم المنافقون سوى الطبل والزمر في الزفة.

مزامير نجيب محفوظ:

في مقطع جميل من كتاب «في حب نجيب محفوظ» يصف رجاء النقاش النفحات الشعرية الخلابة في كلمات محفوظ هكذا: «نحس ان الكلمات مليئة بندى الشعر الجميل، كما نتذكر ونحن نقرا هذه المقاطع «مزامير داود» التي جاءت بالعهد القديم والتي تعتبر ـ بعيداً عن قيمتها الدينية ـ مجموعة من اجمل الاغاني التي عرفتها الانسانية في تعبيرها عن همومها وجروحها وآلامها ومناجاتها الصوفية للكون والحياة.. ويمكننا ان نسمي هذه المقاطع «مزامير نجيب محفوظ» ولعل نجيب محفوظ قد تاثر بهذه المزامير وليس عندي من دليل الا تشابه الروح التي تتامل وتغني وتفكر وتصوغ خواطرها صياغة شعرية جميلة».

وليس اجمل من هذه «المزامير» اختم بها هذا المقال، اخترتها من عدد من اعمال نجيب محفوظ:

ـ في ظل العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا النسيان.. ولكن هل يتوارى الضياء والسماء صافية؟

ـ عاد الى دنيا النجوم والاناشيد والليل والسور العتيق. قبض على اهداف الرؤية، وانتفض ناهضاً ثملاً بالالهام والقدرة، فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الاطفال وطموح الملائكة.

ـ انه فقير ولكنه غني بحمل هموم البشر.

ـ ما اكثر العفة المتولدة عن العجز.

ـ اننا نابى التسليم بالمثل العليا من طول انغماسنا في الماء الآسن.

ـ ماساة الآدمية انها تبدا من الطين، وان عليها بعد ذلك ان تحتل مكانتها بين النجوم.

ـ الدنيا بلا اخلاق ككون بلا جاذبية.

ـ لماذا لا يسود النقاء؟ ما الذي حال دون ذلك طوال القرون؟

وهل يوجد في مكان ما من الارض انسان يعيش بلا خوف ولا رذائل؟

ـ تساءل الا يمكن ان يؤكد انتسابه الى الانسان ويتناسى انتسابه الجبري الى هذا الوطن؟

ـ ثمة آلام اعنف من ترف الضمير!

ـ الانسان اما ان يكون الانسانية جمعاء واما ان يكون لا شيء.

وقد استطاع هذا الانسان الجميل نجيب محفوظ ان يكون اقرب ما يكون الى الانسانية جمعاء.

* كاتب من مصر يقيم في امريكا
fbasili@gmail.com

بالتعاون بين «بيت الشعر» و«المركز الأسقفي العربي»:

إحياء الذكرى الثالثة والثلاثين لرحيل الشاعر الفلسطيني كمال ناصر

رام الله ـ «القدس العربي»:

أحيى المركز الأسقفي العربي بالتعاون مع (بيت الشعر) الفلسطيني في قاعة المركز، الذكرى الثالثة والثلاثين لرحيل الشاعر والمبدع كمال ناصر وكمال عدوان وأبي يوسف النجار.. وقد حضر الاحتفال عدد من المهتمين والمنشغلين بالشأن الثقافي.. وقد افتتح الاحتفال السيد نقولا عقل بقوله: نحن هنا في مساحة تذكر الشهيد الحاضر كمال ناصر.. الذي رحل وإخوته عدوان والنجار.. هنا نحاول الرجوع إلى الذكرى المالحة الجارحة التي نستحضر فيها الشهداء الثلاثة والدم الذي أزهر أخضر.. ها نحن يا كمال إخوتك ومحبيك نأتي اليوم لنقول:

إن غيابك وزملاءك له قوة الحضور، لأن ما تركتموه من فعال بيضاء وكلام حرّ ومعافى ما زال هو المحرك لوجودنا وبقائنا على أرضنا الحرّة.. وإن أشعارك التي اشعلتها على هضاب بيرزيت وفي المنافي ما زالت لافحة وتنير الدرب للسائرين على طريق الحرية والوفاء.

وألقى المطران سهيل دواني كلمة أشار فيها إلى دور وريادية الشاعر كمال ناصر قائلاً: نستذكر الراحل الفذّ والراحلين الشهداء في هذه الأوقات الحرجة التي تمرّ بها البلاد.. في نيسان نتذكر قسوة الذكرى.. سقوط بغداد، والمخيم الشهم وعزت الغزاوي.

بعد ذلك ألقت الشاعرة للي كرنيك قصائد للشاعر كمال ناصر، أعقبتها الشاعرة مرام أمان الله بقصائد أخرى له.

ثم ألقى الروائي والمبدع وليد أبو بكر كلمة بعنوان: «كمال ناصر، صورة عن طائر الفينيق» تحدث فيها عن علاقته بكمال ناصر وفضائه الإبداعي والشعري.. ثم تحدث الدكتور عبد الكريم أبو خشان في كلمته: كمال ناصر، الشهيد الشاهد عن مناقب وسيرة الشاعر الحاضر كمال ناصر.. بعد ذلك تحدث الشاعر مراد السوداني الذي ألقى كلمة (بيت الشعر) تناول فيها سيرة ثالوث الشهداء، وتجربة كمال ناصر وقدرته على الرؤيا والاستبصار.

وقد رنمّت تانيا ناصر عدداً من قصائد الشاعر بصوت رخيم نال إعجاب الحاضرين.

لتختتم الاحتفالية بقصائد أرشيفية للشاعر كمال ناصر بصوته.

شاهد نفي

أيها الموت متى ندفنك؟

خيري منصور *

■ يا سياب ويا وهاب ويا دنقل ويا ونوس ويا عدوان ويا ماغوط.. لا تصدقونا حتى لو ابتلت اوراقنا بدلا من المناديل من الدموع، ويا سعدي ويا ادونيس ويا محمود ويا بقية السلالة الخضراء لا تموتوا كي تمنحونا نصا اضافيا او سلة ورد نفرغها من الورد كي نملأها بالخبز.

ايها الاصدقاء الذين ماتوا قبل الاوان وفي الاوان وما بعد الاوان، نحن نعيش الان اليوم الثامن من اسبوعكم، والشهر الثالث عشر من رواتب البنوك والساعة الخامسة والعشرين التي تمكث فيها البومة الهيجلية ساعة وحي تنعب في الغسق!

قالها ومضى ذلك الساكسوني الحصيف الذي حفظنا عن ظهر دولار، قال بأننا نعشق موتانا اذا وقعوا على وثيقة بيضاء بلون الكفن بأنهم لن يقوموا، وان القيامة لا تخص الا هؤلاء الخالدين الذين تحالفوا مع الزمان والفقر والزنزانة على قتل كل ما تلوح في ريشه بقعة بيضاء.

وقالها آخر اقل حصافة من السكسوني عن عشقنا للرثاء حتى لو كان مديحاً آخر للموتى ولنعترف ذات خريف بأننا سئمنا من طقوس الجنائز، وترتيب اولويات الوداع لان ما لدينا من دموع لا يكفي، ولان قبور من يرحلون لا تتسع لهم بقدر ما تتسع للاحياء الذين يبرطعون اذا تلمظوا بنواة حبة زيتون او تمرة مرة!

هي لحظة للتقاطع غير المحسوب، بين خط طول شعري وخط عرض جنائزي، فكم من الايام غير العجاف عاش هؤلاء؟

وكم من الليالي ناموا على غير الطوى، وكم امرأة فرطت جديلتها على نعاسهم البري فوق وسائد من حجر؟

نودعهم وهم عرايا الا من اكفان لا جيوب لها، والعروة الوحيدة عند النّحر تماماً، تعرف الدودة الماكرة كيف تفكها كي تصل الى سويداء القلب!

ولست ادري سببا لهذه النوبة التي اعترتني بعيد رحيلهم واحدا تلو الاخر، وواحدا ممسكا بما طار في الهواء من قميص الاخر، فالكتابة المتأنقة في وداعهم تبعث على الغثيان، كما يفعل رجل اخرق اذا بحث عن مرآة ليحلق ذقنه تحت غارة جوية او في اللحظة التي هدأ فيها الزلزال.

لم نودعهم كما يليق بهم، وبما يناسب هذا العقوق الذي اقتاد الابن من اسنانه اللبنية كي يحاول قضم حلمة ثدي امه.

هم اخوتنا، منهم الاكبر ومنهم الاصغر ومنهم من عاش خارج التقاويم، كأن يكون قد ولد بلحية بيضاء، او فم أدرد.

عبدوا لنا طريقاً كان محرما بأصابعهم المبتورة، وافتدونا باحتمال اللدغة الاولى، لكننا تناسيناهم في القطفة الاولى رغم ان الرحيق كله مما تقطر من دمهم وعرقهم ودموعهم السرية!

***

اما من وداع آخر بطقوس مضادة، يجترحه من أخطأهم الموت حتى الان لهؤلاء الذين صرخوا في الوديان، وتفجرت اوردة اعناقهم وهم يستغيثون بلا مجيب؟

لقد مات احدهم في آخر هزيع من ليلة الخذلان، بعد ان اشعل لنا الشمعة الوحيدة التي وجدها في جيب معطفه.. ولا ادري لماذا اسرعنا في دفنه، وهو الذي فاض عن مساحة كفنه وعن مساحة قبره الصغير؟

ومات الاخر بعد عام فقط من مرض عمره الاوروبي او الامريكي او الاسرائيلي عشرون عاما، لا لشحة الدواء، بل لشحة العواطف، والسرعة في التناسي والاستعداد المبكر للدفن.

ومات الثالث لان سائق باص صفعه على وجهه وقال له «ان كنت تريد سفرا مريحا فاذهب واشتر سيارة»..

ومات الرابع بشيخوخة ربيعية مبكرة لان عدة انيميات تحالفت ضد عافيته وافقدته مناعة الجسد.. لكنها ضاعفت من مناعة الروح!

لن اعدهم واحدا واحدا، لانهم عديدون ولان الضجر قد يصيب نافدي الصبر ممن هم الان على قيد الموت رغم توهمهم بانهم على قيد الشعر وقيد الحياة وقيد المقايضات. ان من يفتح هذا الملف الاصغر، قد يصدمه تعاقب الصور الشاحبة بالاسود والاسود واحيانا بالابيض والاشيب، ولو كان للشعراء العرب الراحلين قتلا او كمدا او ضجرا مقبرة واحدة لما نبت في ترابها غير الصفصاف والسنديان، اما الصبيّر فليس من هذا الملكوت، لانه يخجل من عجزه وعجز ألواحه الصمغية الثقيلة عن الحفيف!

***

كان سعد الله ونوس وممدوح عدوان باسلين في الخروج للسرطان وجها لوجه وعافية لورم، وحبرا اخضر لسم بلون الصدأ.. ولولا التلفزة، لما كانت تلك الحرب مرئية بين العصفور والثعبان، وتعلمنا منهما ان الموت أرنب أرعن اقتاده سوء طالعه الى العرين!

اما محمود درويش الذي مات دقيقة واحدة كما قال لي ذات احتفال كوني غير متلفز،

فقد شاهد البياض البكر، بل افتضه كسحابة عذراء وامطر جدارية هي حرب ضارية بين حي يصر على الحياة وموت مراوغ نذل يتسلل من عروة قميص مفتوحة او من تحت الباب.

وفي المرة الاولى افتدت محمود حمامة تونسية واعطته ما تبقى من الحياة والهديل، لهذا عاش رغم الموت، بل حول الموت لمرتين على الاقل الى قط يتثاءب تحت قدميه او يتسلل في العتمة الى ما فاض من الشرشف عن سرير العازب!

لقد كان الشعر توأم الموت منذ اللحظة الاولى التي حول فيها الشاعر بصلة القبر الى زنبقة حياة، لهذا لم يخف منه ريلكة الذي رضع من ينابيع الفلسفة التي عشقها فكرة هايدجرية خلاصتها انه ما من موت خارج الحياة.

فالموت يولد معنا.. وينمو معنا، ويشاركنا الرضاعة من اثداء أمهاتنا، ويقتسم معنا سرير الحب.. لكنه لا يجد له متسعا في التابوت، لانه لا يستحق الجنازة وقد لا يستحق الدفن!

***

عندما مات ايلوار اعتذر العشاق من قرائه عن لقاء الاحد.. وعندما انتحر ماياكوفسكي سقط ندف الثلج على حقل من الورد الاحمر في ضاحية موسكونية فأحالها الى فستان عرس.

وقد يحدث شيء ما كالزلزال السري عندما يرشون الماء الاخير على سرير الصخر.

ومن حقنا ان نزعم بان سنبلة ما قد حلت ضفيرتها قبل الاوان وبعيدا عن ارهاب المناجل عندما ابلغتها الريح بان شاعرا ما قد اغمض عينيه الى الابد!

وليقل الذرائعي وحليفه الكلبي وثالثهما الفريسي ما يشاؤون ونحن نهذي بعد ان نفضنا الغبار عن اصابعنا.

ليقل هؤلاء ما يشاؤون لان رياضياتهم مجرد كسور عشرية، ولان دوائرهم اصابها الدوار وهي تبحث عن مركزها الضائع!

فالموت اشد غموضا من هذا الهذيان اللغوي المضمخ بملح العيون، ولو سئلت وردة بعد ذبولها عن سبب افول الرائحة لاجابت بلغة لا يفهمها بائع الزهور او حتى زارعها.

ان موت الشعراء قيامة عاجلة، وغسقهم شفق يساء فهم احمراره، لهذا يجدر بهم وداع آخر، لم يألفه كتاب المراثي ولم يجترحه بعد حتى أعزّ التوائم.

***

هي مناسبة، مجرد مناسبة للاستذكار فقد اصطحبني الراحل جبرا الى بيته بعد وداع لميعة، وكانت غرفة النوم مرتبة، والنعاس يقطر من اهداف الشرشف الحريري الازرق.. قال جبرا.. ما الموت؟ فقلت له على الفور دلّني على الحياة لأدلك عليه، فقال بعينين دامعتين وقد تضاعفت التجاعيد حول عينيه.. مشيرا بيده الى السرير المرتب.

ـ هذه هي الحياة.. ولم يمكث طويلاً بعد ذلك المساء، اذ سرعان ما اصاب الضجر حتى اصبع قدمه الصغير فقرر ان ينام!

ومن يدري؟ لعل ما قاله بول فاليري عن تهربنا الابدي من البدهيات لانها الاشد غموضا من الفحم الحجري هو ما يدفعنا الى اساءة فهم الموت، فهو تارة مجرد «هناك» مضادة لهذه الـ «هنا» او مجرد وجه اخر لصورة مقلوبة.

الموت حيث هو، وكما هو كالحقائق تماما، لكن موت العصافير ليس كموت الثعابين، لان الاولى تكف عن الغناء والثانية تكف عن اللدغ!

ويبدو ان هناك مواسم للموت، لا يحزر رائحتها الرمادية حتى الانف المدرب..

ففي بضع سنوات مضت، ودع العرب عنقودا من اغلى ما جاء به الزمان وصاغه ثم علقه على عنق اجرب، ومعظم هؤلاء ولدوا على تخوم قبورهم، فما كان صوت المطر بالنسبة لعبد الصبور سوى تذكير بيوم شتائي قادم يموت فيه..

وما كان رنين المعاول الحجرية الا العزف المنفرد لعزرائيل بالنسبة لبدر السياب، اما بقية العائلة.. فقد تداولت وترا مضفورا من اوردة نازفة. وما كان هذا التعاقب في الوداع لشعراء العرب من رواد وابناء واحفاد الا موسم موت رمزي.. فقد شح الاكسجين، وتأكسدت السمّاء، وبكت الأفراس بل انتحبت لانها جردت من صهيلها!!

* شاعر وكاتب من الاردن